قصص
٢

نعي أستاذ فاضل من حي الأرمن

عدنية شبلي

لا لم تكن تلك حركة تقطيب جبين، بل انها لم تكن حركة بالمرة، إنما يتفق حاجبا أم كيفورك مع كل ما يمكن لها أن تقوله. كذلك، ارتفاع رأسها، أنفها، وشفتها العليا، كانت هي، أيضا، تبشر بإحساسها الأبدي بالتقزز. بعد أن قرعت بابي لأول مرة، هرع أوهان، الجار من البيت المقابل، يسألني:

– ماذا كانت تريد منك هذه الكلبة؟

المرة الثانية التي فعلت بها ذلك، عندما كانت مارة من أمام بيتي وهطلت فوق رأسها قطرة من المطر، فجاءت تحذرني حتى لا يبتل غسيلي المنشور على الحبل.

أما في المرة الثالثة، فقد كان الطقس جميلا. كنت جالسة في الخارج أحدق في قضبان البوابة، حين انبعث في الحوش صوت خطوات عرفت بأنها لأم كيفورك، ولأننا لم نكن نتبادل الحديث بشكل خاص، أغلقت جفنيّ كي أوفر على كلتينا عناء التحية والاشمئزاز. وهكذا عبرت خطواتها من أذني اليمنى باتجاه اليسرى فوق الممر المؤدي إلى نهاية الحوش، مبتعدة عني. ثم ربما بعد أربع خطوات، وكنت قد فتحت عينيّ بعد الثالثة، عدت أسمعها تقترب مني ثانية. فجأة قالت أم كيفورك: »مرحبا،« ثم اقتربت أكثر. ولم أفهم. سألتني إن كنت أعرف، فأجبت لا. قالت:

عدنية شبلي كاتبة فلسطينية تقيم في القدس

- لقد مات الأستاذ.

بقيت جامدة في مكاني أراقب وجهها، أمسح البعد بين عينيها وحاجبيها. وبعد شيء من الصمت أضافت:

- وذلك الذي عندي، ماذا تعتقدين؟ سيموت أيضا.

كانت تقصد زوجها. ثم اغرورقت عيناها بالدموع وارتجفتا حزنا لعدة لحظات، بينما تمتمتُ، فيما إحساس غريب يعصف بي، بأنني سأبعث بباقة ورد. أعقبت هي بأنه لا فائدة من الورد، إذ يجف. أفضل التبرع بثمن الباقة للنادي الذي تولى موضوع الدفن. أجل، فلا يوجد أقارب للأستاذ. كذلك من يرغب بتقديم التعازي عليه التوجه إلى مقر النادي، حيث سيقدّمون القهوة والكعك على روح الميت. ولقد صنعت الكعك سالبي. هي مشهورة في الحوش بإتقانها لصنع الحلويات. ثم استغربت أم كيفورك كيف أنني لم أنتبه إلى التابوت حين أحضروه في الصباح. لقد توفي يوم أمس.

بعدها استدارت وتركتني وحدي في الساحة وقد كانت الشمس حارة جدا.

■ ■ ■

أعتقد أنه لم يسبق لي أن حضرت مراسم دفن، وإن حدث، فقد نسيت ذلك تماما. أنا متأكدة أنني لم أر جثة من قبل.

بعد وقت دخلت إلى البيت وأويت إلى فراشي لعلي أغفو قليلا، لكنني لم أستطع. افتعلت النوم فقط، فيما راح صوت خطوات كثيرة، غريبة، وغير مألوفة، يغزو أذنيّ. بعضهم يستفسر عن مكان تقديم التعازي، والبعض الآخر عن مكان خروج الجنازة، وآخرون عن مكان الدفن. بينما كيران تستقبلهم جميعا وتوجههم إلى المكان الصحيح. ثم انسل إليّ لاحقا، من بين كل تلك الجلبة، صوت استدارة المفتاح في قفل باب بيت أوهان؛ أشعر بوقعه على القلب، دافئا حميما، على الأرجح بسبب تعرضه الدائم للشمس.

لقد غادر أوهان إذاً. واحد أقل يتلصص.

■ ■ ■

أوهان يسكن قبالتي وعلى يساري تسكن أم كيفورك، تفصل بيننا ساحة يخرج منها ممر يقود إلى مؤخرة الحوش إلى بيت سالبي وبيت كيران، وبينهما بيت الأستاذ. في حين أمام أبواب هؤلاء الثلاثة، توجد ساحة لا يزيد عرضها عن متر ونصف، لأن سالبي قامت بإضافة غرفة على البيت، ولهطت بعض الأمتار منها. وكيران لم تكن لتتحمل ذلك. لم تعد تستطيع. هي أولا مريضة بالأزمة، والغبرة التي أثارتها عملية البناء تلك قتلتها تماما. زد على ذلك أن المدخل إلى بيتها صار ضيقا جدا. وخانقاً. أما سالبي التي كانت حاملاً، صحيح من دون تخطيط ولكنها لن تجهض، فباتتّ بحاجة لغرفة ولو صغيرة لمولودها الجديد الثالث. فانبثق شجار عظيم بين الجارتين، فقد خلاله زوج سالبي أعصابه وضرب شقيق كيران.

كانت تلك النهاية. ذلك فوق الحد.

ولقد مضى أكثر من عام ونصف العام دون أن تتحدث الواحدة مع الأخرى. عندما يُفتح باب

إحداهما، يغلق باب الأخرى بهدوء. أما حين اقترح أوهان ذات عصر على كيران أن يصلح بين الأطراف، بكت هذه، ولم يُفتح الموضوع ثانية بعد ذلك اليوم. لكن وما أن انتهت الجنازة، حتى جاء أوهان يزف لي خبر مصالحتهما بعد هذه المناسبة، مع أنها مناسبة سيئة. ثم أخبرني كيف أنه ذهب في الساعة الحادية عشرة ليلا إلى الجريدة لنشر خبر وفاة الأستاذ حتى يعلم الجميع بموته، إذ إن النادي كان مقفلا ساعتها ولم يكن قد انتدبه أحد بعد لإتمام مراسم الدفن.

– ماذا، أذهبت إلى الجريدة في وقت كهذا؟

– حق الجار على الجار. كنت في البيجاما عندما سمعت بالخبر، فغيرتها وذهبت. لكنني بقيت في حذاء البيت.

إذاً يوجد الآن إعلان عن موت الأستاذ في الجريدة، كم لطيف.

– كيف عرفت أنت؟ من خبّركِ؟

– أم كيفورك.

فتلمظ. وتحولت حركة فمه هذه إلى تموج صار يزداد بمرور الوقت، ثم بعث بيديه كل إلى جيب، حيث راحتا تتموجان بدورهما هناك. وبتناسق وتزامن شديد، أخرج من أحد جيوبه منديلا ورقيا وردي اللون، قرّبه من فمه، وبصق. ثم طواه بسرعة وأعاده إلى جيبه الأيمن.

– أما تزالان لا تتحدثان معا؟

أجاب:

– ما لي بها؟! سلّمنا على بعضنا في الجنازة.

– يا الله منيح.

لم يجب.

– معي هي لطيفة.

– صدقيني، هذه المرأة وسخة. كلبة. لقد سقطت من عيني تماما.

– ولكن ما الذي حدث بينكما؟ طبعا إن كان مسموح لي أن أسأل..

هزّ أوهان رأسه بأسى كما لو أنه متعب من مجرد استرجاع سلسلة أحداث الماضي تلك، وقال بصوت تشوبه ذكرى ألم قديم:

– يا شيخة، كل مرة كانت تراني أنظف الدرج تأتي وتنفض السجاد فوقه، غير عابئة لا بتنظيفي ولا بالدرج. لم تتركني أفرح برؤيته نظيفا حتى آخر النهار ولو مرة. هي الكلبة لديها وردة تنظف لها، وأنا؟

نعم، أوهان رجل وحداني، ويستطيع المرء رؤية ذلك من فتحة باب بيته؛ من كل تلك الألعاب والدمى المجمعة في أكياس نايلون وموضوعة فوق الخزانة، منذ أن هربت زوجته إلى الخارج بصحبة ابنتهما الوحيدة، كما أسرّت لي كيران بصوت خفيض ذات صباح.

ثم أضاف:

– لتنصرف..

أخفضت عيني باتجاه أرضية الساحة، واضعة ابتسامة خفيفة على فمي. كان هذا كل ما هداني ربي إليه من تصرف، منذ أن قدمت للسكن في هذا الحوش، لكي أعلن عدم انحيازي لأي طرف.

أنا والأستاذ كنا الوحيدين من بين كل الجيران اللذين أصرا على عدم التدخل. هو كان. بينما أنا ما أزال. في فراشي. والوقت يمر. بصمت. حتى وردة لا تأتي ضوضاؤها اليوم من داخل مطبخ أم كيفورك.

وردة. تردد خلفه الأشعار بينما هي تجلي، وأنا أجلي، وشباك أم كيفورك المصنوع من الزجاج غامق اللون يحجبهما عني، فلا أنجح إلا بسماع صوتيهما. ثم يضحك كلاهما لأن وردة لا تعرف «من قائل هذه الأبيات؟» بينما هو، الأستاذ، يعرف.

هو، أستاذ اللغة العربية الفاضل المتقاعد منذ عشرات السنين، وهي، الأمية في ريعان الشباب، يجلسان معا في مطبخ أم كيفورك يوميا، ينشدان بصوت عال: «ألف. ألف. باء. باء. ألف باء. ألف باء. أب. باء. باء. ألف. ألف. باء. باء. باء ألف باء. باب».

هكذا، حرفا تلو الآخر، راحت الأحرف تدوي في حي الأرمن مع قدوم الظهيرة، حيث تكون وردة قد انتهت من ورديتها، إلى أن يأتي أخيرا موعد غرفة الجلوس أم كيفورك عبر مطبخها فنافذته، مخترقا نافذة مطبخي فالممر، مندفعا إلى أذنيّ في غرفة الجلوس، صوت الباب الذي طرقاه للتو خلفهما. هي تبتعد خطاها مغادرة الحي، بينما هو يمضي إلى بيته في خطى زاحفة، أشبه ما تكون ببرد الخشب.

لا أدري كم من الوقت مضى حين جاءت كيران تقرع باب بيتي، فتظاهرت بالنوم. غير أنها راحت تنادي اسمي بإصرار من خلف الباب، وبعد وقت صار لا بد لي من أن أرد. دخلت وجلست، متعبة منهكة، وأنا عدت إلى فراشي. قلت لها إنني لا أصدق أن الأستاذ مات، فوافقتني. ثم سألتها إن كانت تحب أن تشرب قهوة، فردت بحماس:

– لا لا، دخيلك. منذ الصبح وأنا أشرب قهوة على روح الميت.

– هل حضر الكثير إلى الجنازة؟

– ما يقارب الثلاثمائة. وكل الحارة كانت.

– أنا آسفة لأنني لم أتمكن من الحضور، ولكن تعرفين... لقد خفت.

فضحكت بالرغم منها. بسخرية؟ غير أنها قالت بأنها تتفهّم.

– سمعت أن سالبي سلمت عليك في الجنازة.

– سلّمت. الله يسلمها!

وتنهدت قاذفة بما تجمع لديها من سخرية إلى هواء الغرفة، ثم أكملت:

– والله.. والله.. ماذا أقول لك؟ طوال حياتي وأنا أعيش باحترام، لم أرفع صوتي على أحد ولم يرفع أحد صوته عليّ.

– كلنا نعرف بأن الحق عليها، وهي نفسها تعترف بذلك. لكن يجب أن نسامح أحيانا. ما حدث حدث.

– أتعرفين؟ في الصبح، حين أحضروا التابوت لأخذ الأستاذ، والله بقوا أكثر من ساعة يحاولون إدخاله إلى البيت. ماذا تعتقدين؟ لقد صار الممر ضيقا جدا. وخانق.

ثم أضافت مستفهمة:

– هل قال الله ذلك، ألا يعرفون كيف يدخلون تابوتاً من أجل أخذ ميت؟

أجل حزين. ثم ماذا تعتقد سالبي نفسها ■■■ بسبب شعرها الطويل؟

إنها تكره سالبي. وصوت صفق الأبواب القادم من داخل بيتها من دون مراعاة لا لجار ولا لشيء، يقلب نفسيتها رأسا على عقب. يحبطها إلى أقصى درجة. وغضضت أنا بصري دون أن أبتسم.

عندما نلوذ بالصمت، تروح كيران تقتله بصوت أنفاسها غير المتشابهة، كما لو أن كل نفس يشير إلى فكرة أخرى. فجأة رفعت رأسها باتجاهي وقالت إنها تشعر ألما في كتفها وعنقها، كان قد بدأ بعد أن وقعت عليها شنطة أحد المسافرين عندما كانت في طريقها إلى عمان في الصيف قبل الماضي. قمت أبحث عن مرهم بين مجموعة أدويتي المتواضعة، وعندما وجدته أسرعت هي بإنزال قميصها دون لمحة تردد. واضطربت أنا. أنا شخصيا ما كنت لأحس بمثل هذه الثقة معها. وضعت بعضا منه، المرهم، بلونه الشفاف على أصابعي، وقرّبت يدي من عنقها ثم أطبقتها فوقه، فأذهلني ملمسه الناعم الطري. لقد كانت بشرتها لا تمت بصلة للسبعين عاما التي تبلغها. وأخذت هي تتأوه، مطلقة صرخة أو اثنتين مع كل حركة من يدي، بينما أنا راح الخجل يطفحني إثر هذه التأوهات. ثم قالت فجأة بصوت أحسست ذبذباته سلفا وهي تعبر من عنقها إلى يدي:

– إيييه على أيام زمان.

أخيرا ارتدت كيران قميصها وأوصيتها بدوري بأن تدفئ جسمها جيدا، حتى تعرق. وصّلتها إلى الخارج، حيث وقفنا قليلا هناك، أنا أقفز في مكاني لا لسبب، وهي تلعب بيد البوابة. ولو تدعها وشأنها. ثم قالت قبل أن تغلقها خلفها، وبروح عالية:

– كان الأستاذ محظوظا. لم يتعذب ولم يغلب أحدا. ولقد كان هنالك الكثير من الناس حوله. من سيكون قربي حين أكبر أنا؟ أنا الآن قادرة، ولكن كيف سأكون بعد عشرين عاما؟ لا بنت ولا ولد. كيف سأتدبر، ومن سيعتني بي؟

– أنا سأعتني بك. ■ ■ ■

– يووووه.. هل ستتذكريني بعد عشرين عاما؟

سأحاول على الأقل ملاحقة مكتب الشئون الاجتماعية من أجل توفير مساعدة لها، مثل وردة.

■ ■ ■

أغلقت الباب بالمفتاح وعدت إلى فراشي. في الطريق عرجت على المطبخ وغسلت يديّ جيدا حتى أزيل عنهما رائحة المرهم الحريفة.

سالبي إذاً كانت آخر من زارني في ذلك اليوم. كعادتها بعد أن يخيّم الليل، إذ تكون قد انتهت من التنظيف والطبخ ثم التنظيف مرة أخرى وتحميم الأولاد وتنييمهم، تأتي لتغيِّر جو عندي.

- الله يرحم الأستاذ.

- أجل.

قلت فقط لما يشوبني من حذر تجاه مثل هذه المصطلحات الدينية، ثم قلت:

- على فكرة، مبروك الصلحة مع كيران.

فردت هي بطيبة بالغة:

- الله يبارك فيك.

- أنا حقا سعيدة لحدوث ذلك أخيرا.

- وأنا أيضا. الذي حدث، حدث. انتهى. الله يسامحها.

- كيران طيبة جدا.

تنهدت سالبي بالطبع متأهبة لشرح موقفها أمامي، لآخر مرة أتأمل:

- أتعرفين؟ لا حظ لي بالمرة مع هؤلاء الجيران. والله كيران هذه التي ترينها، كنت في كل عيد أم أحضر لها باقة ورد، تماما كما أحضر لأمي. لكنها لئيمة جدا.

أنا متأكدة من أن سالبي لطيفة مع الجميع. لقد كانت لطيفة حتى مع الأستاذ.

- دعيك من كل هذا. المهم الآن أنكما تصالحتما. يمكنك أن تكتفي بإلقاء السلام عليها إن كنت لا تريدين أي صلة معها. ذلك على أي حال أفضل من الجفاء التام وأنتما الباب بالباب.

- نعم.

- المهم...

في الواقع لم يكن هنالك أي شيء مهم، قلت ذلك لمجرد أنني بت أنتظر مغادرتها لي، فقد كنت، ولا أدري لماذا، متعبة جدا. لكنها بادرت بموضوع جديد للحديث:

- لقد استفقدناك في الجنازة.

- نعم لم أتمكن من الحضور. لكنني سأذهب لزيارة قبره.

- خبريني حين تودين القيام بذلك، فربما أنضم إليك.

يا الله سالبي هذه، دائما تريد أن تأتي معي. ولتغيير الموضوع، سألت:

- ووردة؟

- وردة؟! يا حرام... لقد حزنت كثيرا. وبكت عليه. لقد جاءت تعزي هي أيضا.

- متى؟

- صباح موته.

إذاً أنا كنت آخر من يعلم!

- يبدو أن كل واحد اعتمد على الثاني في أن يعلمك.

أخيراً تململَت وقامت. مع السلامة سالبي وبقيت واقفة عند البوابة أتابع اختفاءها في عتمة الممر.

فجأة، راحت خطواتها الخفيفة الآخذة في الابتعاد، تثير الهلع فيّ. ألن يخطو الأستاذ أكثر في هذا الممر؟

كانت كل خطوة من خطواته واضحة، بطيئة، ومنفصلة عن التالية، كما لو أن كل قدم كانت تسير وحدها تماما. كانت.

كانت تبعث في النفس السكينة. أو شيئا شبيها بالانهيار العصبي. فكيران كانت تجن منها. تشعر بأنه يزحف داخل رأسها. كما أنها كانت تفضل ألا يمشي بهذه الطريقة من أجله هو، فهنالك مربع حجري مرتفع قليلا عن باقي أرضية الحوش، وطالما تعثر به وسقط فيما هو رائح غادٍ بين البيوت، بينما نحن قابعون خلف أبوابنا المغلقة، مختبئين منه.

بل لشدة ما لحظت أوهان هذا، أخصائي «حق الجار على الجار»، يغلق الباب لحظة يسمع صوت زحف الأستاذ، لكن ليس حتى النهاية حتى لا يثير انتباه الأخير إليه، فيعرف أن أحدا في الداخل. لكن ذات مرة راح الأستاذ يقرع باب بيته بإصرار، دون أن يجيب عليه أوهان. وبقي يقرع ويقرع وبشدة إلى أن فتح له أخيرا. عندها بادره:

– منذ ساعة وأنا أقرع باب بيتك. لماذا لم تفتح منذ البداية؟

فبدأ أوهان يقسم بأنه لم يسمع صوت دقاته، لكن الأستاذ قاطعه بنبرة قاسية، لم أعتقد أبدا بأنه قادر على مثلها:

– أنا الأطرش وليس أنت يا أوهان.

لا، لا يمكن القول بأننا كنا نتسابق إلى رؤيته أو الحديث معه. هذه التجربة المحبطة. يسألك، وعندما ترد عليه، تأتي زرقة عينيه الصغيرتين تتوسلك إعادة الرد بصوت أعلى. وأعلى. فإذا بك تجد نفسك تصرخ في وسط حي الأرمن في بلدة القدس القديمة في غرب قارة آسيا.

هو على أية حال مع الوقت، بات متفهما لرغبتنا في عدم الحديث معه، فصار يدعنا وشأننا. لم يعد يرفع رأسه عن الأرض، فمن يجلس على بعد مترين منه، لا حاجة له بالفرار. لا حاجة لي بالفرار. ولن تكون لي حاجة بذلك أكثر بعد اليوم.

وردة وحدها فقط لم تكن تهرب منه أو تضيع فرصة الحديث معه.

بالتأكيد هو كان يحبها، وردة. ما يكاد يعلو صوتها الحاد واليافع من داخل بيت أم كيفورك، حتى تأتي خطاه الزاحفة فوق الممر، أشد نشاطا من عادتها. ثم يروح اللغط واللهو يعلو أجواء الحوش.

أما الآن فلم أعد أعرف لا متى جاءت ولا متى راحت، أو حتى إذا ما زالت تعمل عند أم

كيفورك. آخر أخبارها كنت قد سمعتها من كيران، بأنها قررت أن تضع كل مكسبها من العمل في تنظيف البيوت، في عملية جراحية في إحدى ساقيها ، إذ إن واحدة كانت أطول من الثانية. غير أن كيران كانت خائفة من عدم نجاح العملية، وتكون المسكينة بها قد ضيّعت كل توفيرها ليس أكثر. ما دخلي بها أساسا. فلقد كان فيها من الخلاعة التي ما كانت لتناسب ذوقي بالمرة.

وبكت على الأستاذ أيضا.